حـــول كتـــاب :

الحجة في القراءات السبع للإمام ابن خلدون

تحقيق : عبد العال سالم مكرم أستاذ بجامعة الكويت
تعليق الدكتور عبد المعطي محمد بيومي

اهمية البحث فى القراءات فى هذا العصر :

قد يخيل الى بعض الناس ان البحث فى القراءات السبع شىء لا يلائم هذا العصر المزدحم بالافكار العصرية والصراع بينها ، ولكن هذا التخيل سرعان ما يتبدد اذا تذكرنا ان الصراع بين الاقطار والعقائد انما يذكر على ضرورة الحفاظ على مصادر الافكار وكتب العقائد .

فالشيوعية مثلا تعنى اشد العناية بكتب « كارل ماركس » و « فردريك انجلز » وتنزل كتابى « راس المال » و « المانيفستو الشيوعى » منزلة القداسة ، وهى فى الصين تفعل الشىء نفسه بالنسبة لتعاليم « ماو » حيث تعنى بها وتطبقها طبقات مختلفة وتضفى عليها الشروح والتفسيرات لتكون زادا لهم فى الثورة الثقافية وصراع الايديولوجيات .

واذا كان الامر كذلك فان اولى الناس بالعناية بكتابهم عناية شاملة لكل النواحى انما هم المسلمون الذين ورثوا الوحى من الله زادا لهم فى كل عصر .

هذه ناحية ، ومن ناحية اخرى فان اللقاء الاسلامى الذى بات ضرورة انما يدعو كل مسلم الى العناية بالقرآن الذى هو مجمع هذا اللقاء خاصة العناية بقراءته المتعددة التى تقرا بها الشعوب الاسلامية .

فمعرفة القراءات والعناية بها اذن :

— لا تخرج عن طابع العصر .

— وهى فى الوقت نفسه وسيلة من وسائل المعرفة والتفاهم بين شعوب الامة الاسلامية الواحدة ولذلك لم يخل عصر من عصور الاسلام من دراسة القراءات والحفاظ عليها وعلى العلوم المتصلة بها .

ومن اهم جوانب البحث فى علم القراءات هو الاحتجاج للقراءة بموافقتها لقواعد النحو واللسان العربى لان اى قراءة لا تثبت موافقتها لهذا اللسان لا تكون قراءة يعتد بها فضلا عن ان تكون قراءة على الاطلاق .

ولذلك اهتم العلماء ببحث الحجج النحوية للقراءات توثيقا لها .

ومن ابرز الكتب التى عالجت هذا الجانب هو كتاب: « الحجة » لابى على الفارسى ، الذى وضعه شرحا لكتاب « القراءات السبع » لابن مجاهد الذى كان اول من سبع السبعة وكان اليه المرجع فى فن القراءات كما يقول ابن الجزرى .

لكن كتاب ابى على الفارسى جاء — كما قال النقاد — طويلا ومطنبا الى حد ينفر العلماء فضلا عن القراء المتوسطين وقد انتقده تلميذه ابن ضبى حيث قال فى كتابه : « المحتسب » : « فان ابا على رحمه الله عمل

كتاب الحجة فى القراءات فتجاوز فيه قدر حاجة القراء الى ما يجفو عنه كثير من العلماء » كما قال « وقد كان شيخنا ابو على عمل كتاب الحجة فاغمضه واطاله حتى منع كثيرا ممن يدعى العربية فضلا عن القراء واجفاهم عنه ومع هذا الاطناب الذى عابه العلماء فان ابا على كان يعتمد فى اللغة على القياس .

ورغم المختصرات التى وضعت لكتاب « الحجة لابى على الفارسى » فان الحاجة مع ذلك ظلت ماسة الى كتاب جديد للاحتجاج للقراءات احتجاجا يعتمد على :

ـ الاختصـــار

ـ الرواية والسماع فى اللغة .

ومن اجل هذا وضع الامام الحسين بن احمد بـــن خالويه (المتوفى بحلب سنة 370 هجرية) كتابه « الحجة فى القراءات السبع » متحاشيا الانتقادات التى اخذت على كتاب الفارسى فاقامه على الايجاز وعلى اخـــذ اللغـــة مـــن السمـــاع .

وقد ظل هذا الكتاب مخطوطا مجهولا حتى سنـــة 1371 هـ حتى اخرجه وحققه الاستاذ المحقق الدكتور عبد العال سالم مكرم استاذ النحو العربى المساعـــد بجامعة الكويت ثم نشرتـــه دار الشروق فى بيروت فى 388 صفحة من القطع الكبير .

والامام ابن خالوية له منزلته المرموقة فى علوم اللغة قالوا عنه «كان اماما واحد افراد الدهر فى كل قسم من اقسام العلم والادب ، وكان اليه الرحلة من الآفاق وكان آل حمدان يكرمونه » .

والدكتور عبد العال سالم من الرجال المثابرين فى جد على الدراسات القرآنية لا ينتهـــى الى راى الا بعـــد التروى الطويل واستغراق الذهنية فى الاستنتاج كمـــا تنبىء ابحاثه ومقالاته .

اما الكتاب فهو طلبة كل طالب فى القراءات وقـــد استطاع مؤلفه ان يغنى به طالب الفائدة فى اسرع وقت.

لكن هنا قضية رئيسية وهى : هل هذا الكتاب ـــ كتاب الحجة لابن خالويه ـــ هو حقا لابن خالويه او ان نسبته الى ابن خالويه فيها مقال ؟

يقول الدكتور المحقق : « ان هناك سحبا من الشك فى نفوس بعض المعاصرين من حيث نسبة هذا الكتاب الى ابن خالويه ودليلهم انه لم يرد فى كتب الطبقات ان لابن خالويه كتابا يسمى كتاب الحجة وان ذكـــرت ان له كتبا فى القراءات حملت اسماء مختلفة ولم يحمل واحد منها اسم الحجة ، وبعد جهد استغرق ما يقرب مـــن عامين فى دراسة هذا الكتاب ودراسة مؤلفـــات ابـــن خالويه استطعت ان اصدر حكمى فى ثقة لا تعرف التردد وباعيان لا يعرف الشك ان هذا الكتاب تنسبته الى ابن خالويه صحيحة » .

ويستدل الدكتور المحقق على ثقة فى صحة نسبة هذا الكتاب الى ابن‌خالوية بعدة ادلةيمكن تركيزهافيما يلى:

1 ـــ تلمذة كل من ابى على الفارسى وابن خالويه لابن مجاهد ،واذاكان‌احد التلميذين‌وهو ابو على‌الفارسى الف شرحا لكتاب استاذه ابن مجاهـــد فليس بدعا ان يؤلف التلميذ الآخر ـــ ابن خالويـــه ـــ شرحا لكتـــاب استاذه .

وقد ذكر ابن خالويه نفسه ان له كتابا فى القراءات عند تعرضه لقوله تعالى « انعمت عليهم » ـــ فى كتابه اعراب ثلاثين سورة ـــ وفى كتاب الحجة هذا التعليل الذى اشار اليه ابن خالويه فى كتابه الآخر مما يثبت ان كتاب الحجة هو لابن خالويه وان عدم شهرة هـــذا الكتاب يرجع الى ان شهره الحجة للفارسى قد غطـــى عليه او ان الكتاب فى القراءات فاستغنى بذكرها عن ذكر اسم الكتاب بالحجة :

2 ـــ ان عدم ورود كتاب الحجة فى الطبقات لا يعنى ان هذا الكتاب ليس لابن خالويه لان لابن خالويه نفسه كتبا نص هو عليها بنفسه وهى موجودة ومع ذلك ليست فى الطبقات .

3 ـــ ان كون الكتاب لم يشتهر باسم الحجة لا يقدح فى نسبته الى ابن‌خالويه لان التسمية من عمل المتأخرين وحتى كتاب الحجة للفارسى لم يقدمه ابو على لعضد الدولة تحت اسم الحجة .

4 ـــ التنافس العلمى فى عصر ابن خالويه يفـــرض عليه ان يؤلف كتابا فى الاحتجاج للقراءات لان ذلك كان طابع عصرى .

5 ــ من اوضح ادلة التوثيق ان اسلوب الكتاب ومنهجه يتوافق تماما مع اسلوب ابن خالويه ومنهجه فى كتبه الاخرى .

6 ــ ان الاعلام الذين سجلهم ابن خالويه فى كتابه كانوا اسبق منه زمنا .

7 ــ تقارب بعض النصوص فى مؤلفات ابن خالويه مع بعض نصوص الحجة ويقول المحقق « لا ابالغ اذا قلت ان هناك نصوصا بأسلوبها وكلماتها فى هذه المؤلفات هى بعينها فى كتاب الحجة » وفعلا اورد المحقق ادلة وفقرات من كتب مختلفة لابن خالويه مقارنا بينها وبين كتاب الحجة .

8 ــ ان كتاب الحجة اقدم من حيث النسخ من الكتب الاخرى التى وصلت الينا لابن خالويه اذ هو نسخ سنة 496 هـ بينما كتاب القراءات نسخ سنة 600هـ

الا ان الاستاذ « محمد العابد الفاسى » الاستاذ بجامعة القرويين فى مقال له بمجلة اللسان العربى مجلد 8 ص 1 سنة 1390 هـ يناير 1971 صحيفة 521 ــ يشكك فى نسبة الكتاب الى ابن خالويه كما يشكك فى ادلة المحقق على هذه النسبة على النحو التالى وحسب الترتيب الذى ذكرته :

1 ــ تلمذة ابن خالويه لابن مجاهد لا تكفى لاثبات النسبة .

2 ــ عدم ورود اسم كتاب اسم الحجة لابن خالويه فى الطبقات « فان كتاب الحجة جدير بأن يذكر فى اول قائمة كتب ابن خالويه لو صحت النسبة وحيث لم يذكر فى كتب الطبقات ولا ذكر فى باقى كتب ابن خالويه فهذا دليل على عدم صحة نسبته اليه » .

3 ــ يقول الاستاذ الفاسى ان النسخ العتيقة من الحجة لابى على الفارسى مكتوب بظهر اول ورقة من اجزائه بخط عريق فى القدم « الجزء السابع من كتاب الحجة لقراء الامصار . الخ » فمن اين الجزم بأن ابا على الفارسى لم يسم كتابه بالحجة » .

4 ــ ان التنافس العلمى فى عصر ابن خالويه لو بلغ ما بلغ لا ينتج حتمية ان يؤلف ابن خالويه فى القراءات وقد وقع التنافس فى كثير من الفنون فى عصره ولم يؤلف ابن خالويه فى جميع تلك العلوم .

5 ــ ان الاحتجاج بأن اسلوب ونهج كتاب الحجة لابن خالويه متقارب مع اسلوبه ونهجه فى كتبه الاخرى لا يصح لان اسلوب تلاميذ ابن مجاهد جميعا كان يتوخى الاختصار .

6 ــ ان الاستدلال بالزمن من الاستدلالات الواهية ومتى كان النقل عن اعلام سابقين فى الزمان دليلا على نسبة كتاب شخص معين ما لم تقم ادلة خارجة على تصحيح هذه النسبة .

7 ــ ان المشابهة بين النصوص وتقاربها فى المعنى لا تفيد شيئا فى الواقع لان نصوص ابى على الفارسى نفسها تتقارب مع ما قاله النحويون المعاصرون للفارسى

8 ــ تاريخ النسخ لا يمكن الاعتماد عليه حيث ان النسخة عارية عن اسم الناسخ ولو ذكر لامكن البحث عنه ومعرفة وزنه زيادة على ان الخط ليس من الخطوط المتداولة فى القرن الخامس الهجرى .

وينتهى الاستاذ الفاسى الى انه يميل الى ان هذا الكتاب احد المختصرات التى اختصر بها كتاب الحجة الاصلى قام به عالم مجهول .

وبعد تركيز ادلة المحقق وملاحظات الاستاذ الفاسى عليها على النحو الذى فعلت فلعل القارىء المتحقق يلقى معى نظرة فاحصة على الادلة والملاحظات معا ، ولا ادعى اننى حكم بين الاستاذين الفاضلين فهما معا اكثر منى فضلا ولكننى هنا متخذ صيغة القارىء الذى يقرأ بعقله ويزن الدليل بالدليل ويتحرى وجه الحق للحق وحده مع شكرى العميق للمحقق والناقد لاتاحتهما هذه الفرصة لى ولخدمتهما الفكر الاسلامى بمثل هذا الحوار الذى اصطنع اسلوب المناقشة الجادة الهادئة بعيدا عما يمكن ان يكون منافيا فى امثال هذه المناقشات .

ولى على ما يقول الاستاذ الناقد ملاحظات :

1 ــ صحيح ان تلمذة ابن خالويه لابن مجاهد لا تكفى وحدها فى اثبات نسبة الحجة الى ابن خالويه ولكنها يصح ان تكون عاملا مساعدا لا يمكن نفى اثره فى

مثل هذا الجو العلمى استاذ يضع كتابا فى فن واحد تلاميذه يضع شرحا على كتاب استاذه فمن الطبيعى المعتاد حينئذ ان يتجه تلميذ آخر للمناقشة وللادلاء بدلوه فى نفس الموضوع خاصة اذا عيب على كتاب الفارسى بانه طويل معتمد على القياس وجاء كتاب ابن خالويه مختصرا معتمدا على السماع .

2 ــ عدم ورود اسم الكتاب فى الطبقات او قائمة كتب ابن خالويه ليس دليلا قاطعا على نفى النسبة لان الطبقات والفهارس ليست هى المرجع الوحيد فى هذا الموضوع لان هذه الفهارس سقطت منها كتب كثيرة لمؤلفين كثيرين منهم ابن خالويه نفسه وغيره لان هذه الفهارس لا يمكن ان تحصى جميع ما كتب الكاتبون ولان ما يحصونه ليس معصوما من يد الحادثات وما اكثر ما ضاع من كتب ومخطوطات قد لا يعلم بها احد.

3 ــ ان الكتابة على احدى النسخ العتيقة للحجة للفارسى لا ينهض دليلا على ان هذا الكتاب كان مسمى بهذا الاسم عند ما ظهر لاول مرة خاصة اذا راعينا قول المحقق ان مؤلفه الفارسى لم يقدمه لعضد الدولة تحت هذا الاسم فربما ظهرت التسمية بعد ظهور الكتاب بمدة.

4 ــ التنافس العلمى وعدم تاليف ابن خالويه فى بعض الفنون التى راجت فى عصره لا ينفى نسبة الحجة اليه لانه ربما كانت هذه الفنون التى لم يؤلف فيها اقل اهمية من حيث التنافس اما من القراءات فكان من الفنون المقدمة فى ذلك العصر والتى تقع حتما فى بؤرة التنافس .

5 ــ قول الاستاذ الفاسى ان اسلوب تلاميذ ابن مجاهد ومنهجهم كان واحدا قول لا يستقيم مع ما ذكره النقاد من ان كتاب الحجة للفارسى مطول يعتمد فيه على اخذ اللغة بالقياس بينما الحجة لابن خالويه مختصر يعتمد على السماع فى اللغة فكيف يكون اسلوب هؤلاء التلاميذ ومنهجهم واحدا ؟

6 ــ الاستدلال بالزمن من ناحية التحقيق ليس واهيا بل قد يكون قاطعا احيانا فكيف نعتمد نسبة كتاب الى مؤلف مع ان هذا المؤلف يذكر اسم مؤلف آخر لم يكن قد ولد بعد ان مراعاة الزمن فى التحقيق امر بالغ الخطورة بل قد تتوقف عليه صحة التحقيق وعدمها .

7 ــ ان المشابهة بين النصوص بين مؤلفين لا تصل الى حد استعمال جمل بحذافيرها بنفس الحروف كما يحدث مع مؤلف واحد لكتابين .

8 ــ كون النسخ عارية عن اسم الناسخ لا ينفى ثبوت النسبة اما كون الخط ليس من الخطوط المتداولة فى القرن الخامس فذلك محل اختلاف وجهات المحققين وعدم اتفاقهم والقطع بأن هذا الخط من خط القرن الخامس او ليس فيه مسألة لا يؤخذ فيها برأى واحد ولو كان هذا الكتاب مختصرا لكتاب الفارسى لوردت فيه اشارة ما الى ذلك لكن ذلك لم يحدث .

وقد احس الاستاذ الفاسى ان هذه الملاحظات لا تنفى نسبة الكتاب الى ابن خالويه فقال : « كما لا يمكن ان ننفيه عنه نفيا قاطعا ».

من هنا فان العقل يرى ان هذه النسبة صحيحة لشبه الكتاب بكتب ابن خالويه واشتراكه فيها فى جمل بعينها ولتصور الجو العلمى فى القرن الخامس ووضع ابن خالويه العلمى فى هذا العصر .

على ان الذى يقطع هذا الجدل كله حول نسبة الكتاب لابن خالويه ان مقدمة « تاج العروس » تنص صراحة على ان من المراجع التى اعتمد عليها الزبيدى فى كتابه كتاب الحجة لابن خالويه واذا لم يكن كتابنا هذا موضع الحديث فأين كتاب الحجة لابن خالويه ؟ الا يكون ذلك النص قاطعا اقطع من ورود اسم الكتاب فى الطبقات .

ولا يقلل بعد ذلك من اهمية الكتاب العلمية فى حد ذاته وانه سد حاجة المكتبة الاسلامية فى المادة التى الف فيها وقد سبق لآرثر جيفرى ان حقق مقدمتين فى علوم القرآن هما مقدمة ابن عطية ومقدمة ذكر انها لعالم مجهول فجهل المؤلف لا يقلل من قيمة ما الف .

جزى الله ابن خالويه ، والمحقق ، والناقد ، خير الجزاء ، واعان الله كل العاملين فى حقل الفكر الاسلامى على امرهم وسدد خطاهم .